

البعد الديني والشعبي لطقوس زيارة الولية الصالحة "يما قورايا" بولاية بجاية.

The religious and popular dimension of the rituals of visiting the righteous saint "Yama Gouraya" in Bejaia.

ليدية عجيسة^{1*}

¹ جامعة أكلي محمد أولحاج البويرة-الجزائر-

مخبر متعدد التخصصات في علوم الإنسان البيئة والمجتمع.

l.adjissa@uni-bouira.dz

خالد زعاف²

² جامعة أكلي محمد أولحاج البويرة-الجزائر-

مخبر متعدد التخصصات في علوم الإنسان البيئة والمجتمع.

k.zaaf@univ-bouira.dz

تاريخ القبول: 2024/11/16

تاريخ الاستلام: 2024/10/12

ملخص:

تبحث دراستنا عن حقيقة الأسطورة الشعبية والدينية لضريح الولية الصالحة يما قورايا Yemma Gouraia، الذي يقع على أعلى قمة جبل شامخ في مدينة بجاية، يصعده الزائرون من كل ربوع التراب الجزائري بدون كلل أو عناء، طلبا للشفاء والبركة واستجابة للدعوات، وحلا للمشاكل النفسية والاجتماعية والجنسية، وحتى تقربا لله. بمهدف التعرف على المعنى الذي يضفيه الفاعلون على طقوس الزيارة، والرهانات المختلفة التي يصبون إلى بلوغها في هذا الحقل الذي يرتبط به ما هو ديني ومقدس متعلق بالعبادة وذكر الله، أيضا بما هو شعبي يتمثل عادة في طقوس للسحر والشعوذة وطلب المعونة من الضريح والروح الذي يسكنه، حتى يتسنى لنا التعرف على الوظيفة الاجتماعية لزيارة الولية الصالحة وكيف تأثر على نفوس المقبلين وحتى على الروابط والعلاقات الاجتماعية.

الكلمات الدالة: الأولياء الصالحين، الأسطورة، يما قورايا.

Abstract:

Our study investigates the truth of the popular and religious legend of the shrine of the righteous saint, Yemma Gouraia, which is located on the highest peak of a majestic mountain in the city of Bejaia. Social, sexual, and even closer to God.

*المؤلف المرسل: ليديدة عجيسة، الإيميل: l.adjissa@uni-bouira.dz

What matters here is to analyze the truth of the myth from the standpoint of scientific and religious data, as well as to identify the meaning that the actors give to the rituals of the visit, and the various stakes that they aspire to reach in this field that is linked to what is religious and sacred: such as the names of God, supplication to him, and prayers for The Prophet, and the recitation of the Qur'an, with what is popular and rituals of magic and sorcery, and asking for help from the shrine and the spirit that inhabits it, so that we can learn about the social function of visiting the righteous guardian and how it affected the souls of those coming and even on social ties and relationships.

Keywords: Righteous saints ; Myth ;Yama Gouraya.

المختص:

مقدمة:

تتخذ الجزائر بمورثها الشعبي التقليدي، ومن أهم الجوانب المشكلة لثقافتها الشعبية والدينية، ذلك الحيز الوراثي من الأولياء والصالح والزوايا تبعاً لتطور الحضارة الإسلامية العربية في الجزائر، وبقت قداساتهم والطمع في بركتهم وبلوغ مكانتهم تتوارث جيل بعد جيل، عادة ما تصبوا هذه الممارسات و «تتركز هذه الأفعال على الإيمان بقوة الكائنات الفعالة أو بالقدرات المقدسة التي يسعى الإنسان للتواصل معها (...)» (فريول جيل، 2011، ص-ص 153-154)، عن طريق ممارسة طقوس معينة يعتقد من خلالها بأنها تمكن من العبور بين الأحياء وما يحملونه من مشاكل ومشاكل الحياة، وبما لديهم من ذنوب وخطايا تقلل من حظوظ استجابة الدعوات من الله، وبين عالم الأرواح المقدسة القريبة من الله والتي يستجاب الله منها الدعاء لأنهم كانوا بشراً مباركين، ومن ولادة الأنبياء ومن حفظ القرآن، فشفعتهم لناس تتحقق بسبب نواياهم وسيرتهم الطيبة السابقة، والتي لا يزال ينتفع منها مختلف الأجيال والأحفاد.

الأم قورايا أو يما قورايا بالقبائلية، Yemma Gouraya أيضاً ولية صالحة، ويعتقد سكان المنطقة أنها حارسة بجاية، وهي عبارة عن جبل يبلغ ارتفاعه مقربة 672 متراً على سطح البحر، حيث يتم بدون كلل بلوغ قمة الجبل من قبل الزوار والسياح يتطلب مشياً على الأقدام لمسافة 5.5 كيلومتراً، وهو ممر ضيق ومنحدر صعب¹، حيث يظهر الجبل من بعيد ووفق لاعتقادات سكان المنطقة على شكل جسد لامرأة نائمة. مستلقية على طول ومساحة الجبل التي تبلغ حوالي 2080 هكتار، وهو المكان أيضاً الذي ترقد فيه الولية الصالحة التي يقوم أغلب السكان بتقديسها وزيارتها والدعاء لها وإليها.

عن تأثير هذه الولية على الناس وعلى أفعالهم وعلاقاتهم، ولماذا الاعتقاد بها لهذه الدرجة، رغم ما بلغه المجتمع من تطور فكري وعلمي وانتشار للقيم العقلانية الحديثة، أتت هذه الدراسة للبحث عن كيف تواجدت قورايا الولية الصالحة المتصوفة في قمة جبل على شكل جسدها وما هي الأهداف التي تحققها لسكان المنطقة، وهذا ما سنحاول التركيز عليه من خلال هذه الدراسة من منطلق التساؤلات التالية:

- ما هي مرجعية الثقافة الشعبية المتعلقة بطقوس زيارة الولية الصالحة بما قورايا لدى سكان بجاية؟
- هل هناك علاقة بين قوة الاعتقاد بقداسية الأسطورة بما قورايا لدى الفاعلين البجاويين بتوجيه فعلهم الاجتماعي وقيمهم؟
- ما هو الدور الاجتماعي والنفسي لهذا الاعتقاد ببرهان وقداسية الولية الصالحة ؟ وكيف ينعكس ذلك على العلاقات والروابط الاجتماعية لدى سكان المنطقة؟

منهجية الدراسة:

قمنا بملاحظة بالمشاركة مع أحد النسوة اللاتي لديهن اعتقاد كبير ببرهان وبركة الولية الصالحة قورايا، في حين أن مجتمع البحث تمثل بجبل قورايا الموجود بمدينة بجاية كولاية جزائرية، من أجل التعرف على حقيقة الأسطورة، وكيفية تأثيرها على نفسية والحياة الاجتماعية للمعتقدين بها من مختلف ربوع الوطن.

أولاً: الإطار والبعد الديني والشعبي لطقوس الأولياء الصالحين.

يلعب الدين والبيئة الاجتماعية من حيث الطبيعة والمناخ دور في تحديد أساطير الشعوب و اعتقاداتهم المختلفة حولها، إذ أن « تفاعل الإنسان مع بيئته هو الذي يخلق استجاباته وردات أفعاله ومعتقداته (..)»، فعند المقارنة بين معتقدات بيئة وأخرى فنرى مثلاً الفرق بين معتقدات بيئة باردة وأخرى حارة (..)، فيتفاعل الإنسان معها تخلق لديه المعتقدات متناسبة مع بيئته» (الباش السهلي و محمد توفيق، ب س، ص 10)، كل من القوى الثلاث: الاعتقاد في الغيب و الله، والاعتقاد في الأرواح والجن، والاعتقاد في رهبة وقداسية البيئة والجبال دوراً في توجيه الممارسات والطقوس الاجتماعية المختلفة عادة ما تصل إلى درجة التناقض بين ما هو ديني يتطلب ذكر الله والاعتقاد باستجابة الدعوات، وبين جانب آخر ساهم الكثير من الأئمة في التحذير من مخاطره وعظمة خطاياها بما يتضمنه من التضرع إلى غير الله، وعبادة المقابر والجبال والخضوع إلى قواهم السحرية، إلا أن الناس ورغم ارتفاع درجة الوعي والمستوى العلمي والثقافي لا يزالون يتأثرون بتلك الاعتقادات وأصبحت تشكل جزءاً من منظومتهم الاجتماعية والفكرية، حيث يرجع بعض المختصين ذلك

الى الخوف من جهة والرغبة في «البحث عن الرابطة السببية العميقة لكل مخاوفهم وخرفاتهم ويرجع ذلك لعدم فهمهم الصلة التي تربط الظواهر ببعضها البعض» (بريل، ب س، ص 22)، خاصة لما لهذه الاعتقادات من تأثيرات روحية ونفسية على البشر، والاعتقادات بالاساطير في المجتمعات العربية عادة ما تستند ل :

1 الأولياء والصالح:

إن كلمة (والي) للدلالة على تلك الفئة من الشخصيات الدينية التي تحظى بتكريم خاص من جانب الناس (مسلمين ومسيحيين)، ولكنهما لا تنتهي فقط إلى فئة الأشياء أو غيرها من الشخصيات الدينية المقدسة، وبذلك استعرضنا بكلمة (أولياء) عن كافة الألقاب والأسماء الأخرى (كالمشايع أو السادة أو أهل الله... إلخ. كما أن «هناك علاقة بين الأنبياء وبعض الأولياء فهناك بعض الأنبياء الذين يتخذ تكريمهم للشكل المتبع للأولياء، كمقام إبراهيم الخليل في فلسطين ومقام داود عليهما السلام» (حاتم العبيدي، 1444هـ، 2019م، ص 104). أو المقام العالمي لقبر لمقام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، الذي يطمع العديد من المسلمين بالوصول إليه ولمس الحجر الأسود، بلوغا لرضاه، واستجابتهم لدعواتهم، لاعتقادهم أن الدعاء يصل إلى الله غير راجعا ومحققا في بيته الحرام، وعملا بالأسطورة الدينية أن الحج إلى بيت الله الحرام مكة حيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، سيجعله يعود صفرا من الخطايا وأيضا من الزلات كالقماش الأبيض، فيلبس الأبيض كرمز لذلك وتكريسا لتلك الطقوس التي يجب أن تعمل بنفس الطريقة، والتي يدل معناها على نقاء الروح وذهاب الخطايا: «كما أن هناك بعض شخصيات الأولياء الذين يستعيدون مكانتهم من علاقاتهم المخصوصة مع بعض الأنبياء، كبعض المولودين من نسبهم وبعض أصحابهم ورفاقهم. وهناك كثير من الأولياء نالوا شهرتهم الواسعة وعزمهم الإلتباع من خلال تشكيلات الطرق الصوفية المختلفة، التي تكونت ولبالغ عددها في العالم الإسلامي والعربي قديما وحديثا أكثر من مئة طريقة وإن كثير من الطرق الصوفية الواسعة الانتشار تحمل اسم أحد الأولياء» (حاتم العبيدي، 1444هـ، 2019م، ص 105)، كما أن الاعتقاد مثل هذه القوى يلعب دور نفسي واجتماعي كبير؛ كما أن تأثير ذلك في نفوسهم يتعدى إلى أبدانهم ، حتى يحدث عنها انفعالات غريبة في العالم حسب اعتقادهم، «فيشفى المريض باستشفائهم، وتسقى الأرض باستسقائهم، وربما يحدث الخسف والزلزلة والظوفان والصواعق بدعواتهم (..)» (حاتم العبيدي، 1444هـ، 2019م، ص 106).

2 الاساطير:

يشير الأغلبية إلا أن لفهم أسطورة ما وتحليل ما تحمله من تأويل ورموز، علينا أولاً الإحاطة الدقيقة بأوضاع وبيئتها ومجال ظهورها، وبما أن الأساطير حسب الأغلبية من الدارسين والمحللين ليس شيء ميتافيزيقي بل هي كما عرفها البعض: «تاريخ مقدس، تاريخ حقيقي لأنها ترجع دائماً إلى حقائق» (عبد الله عمر، 2024، ص 26)، ويؤكد أيضاً كلود ليفي ستراوس بقوله: «إن للعقل الانساني هوية أساسية تظل ملازمة له في كل زمان ومكان، واننا نستطيع كشف هذه الهوية بتحليل نواتج هذا العقل من اساطير ونظم اجتماعية وطقوس (..)» (ستراوس، 1986، ص 16)، كون الاساطير كثيراً ما تحاكي العقل والمنطق العقلاني في المجتمعات، كما هي قادرة على توجيه الفعل وطبيعة التفاعل الاجتماعي.

3 البعد الديني والشعبي لأسطورة بما قورايا حسب ما هو متداول:

ذلك ما جعلنا نحاول التطرق في هذا العنصر لإظهار مكان وحقيقة الأسطورة من لسان سكانها. حيث تقع مدينة بجاية أو Vgayeth فقايت: «على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، في شمال شرق المغرب الأوسط، على خط طول 2 درجة و 45 دقيقة شرقاً، وعلى دائرة عرض 36 درجة و 45 دقيقة شمالاً، وبنيت هذه المدينة على شكل مدرج فوق منحدرات وسفح جبل أمسيون الشاهق، غورايا حالياً» (محمد بن عميرة، و لطيفة بشاري، 1436 هـ / 2025م، ص 15)، و اسم أميسوم يعني المحاربة وهو جبل قورايا حالياً، و «جبالها تعود إلى عصر الكريتاسي ولذلك فهي كثيرة الالتواء، والأخاديد، والمنحدرات الحادة، وتتكون من صخور جيرية، وتحتوي على بقايا بركانية وقد شكلت حواجز أمنية جعلت من المدينة مكاناً حصيناً ضد من يريد مهاجمتها» (محمد بن عميرة، و لطيفة بشاري، 1436 هـ / 2025م، ص 18). وحالياً بنيت أحد أكبر المنارات في العالم، وإلى جانب ذلك فهي مصنفة من قبل منظمة اليونسكو كأكبر محمية طبيعية عالمية منذ سنة 2004.

يسمع كثيراً من لسان سكان بجاية، وحتى في بعض المقالات والكتب، أن لبجاية مثقفين وأئمة وصالح أهمهم 99 ذكر ولي صالح، و«كانت بجاية مقر الأولياء كثيرين معروفين بزهدهم وعلمهم، على مستوى العالم الإسلامي، وكان الناس يتسارعون إليهم من أقاصي البقاع لاستشاراتهم» (محمد بن عميرة، و لطيفة بشاري، 1436 هـ / 2025م، ص 46)، والذين لا يدخلون بجاية حتى يقيمون بالوضوء عند

مدخل المدينة، في المنطقة المسماة بئر السلام، (بئر السلام)، وهو بئر تركه ولي صالح هدفه يعني كل من دخل المدينة على أنك عليك بترك الخطايا والآثام قبل دخولك، وإلا لن تتقبل من قبل صلاحها أو تصيبك لعنة

²، «كما كان الطلبة يتسارعون من كل الجهات لتعلم الشريعة والرياضيات والفقه، والطب والفلك على يد أكثر العلماء شهرة في ذلك العصر، وكانت بجاية في النهاية مكان يحج إليه أتقياء المسلمين، حتى أنها لقبت بمكة الصغيرة» (محمد بن عميرة، و لطيفة بشاري، 1436 هـ / 2025م، ص 44)، كما تربعت على عرش الولاية والصالحين والعلماء أنثى، سميت بما³ قورايا Yemma Gouraya، وهي ابنة ولي صالح من بين أحد الأولياء 99، ولو كانت ذكرا وليست أنثى، لا أصبحت مدينة بجاية بمثابة قداسية مكة المكرمة، وقبله للحجاج ونيل للبركة من صلاحها وأوليائها حسب اعتقادات والرواية المحاكاة والمتداولة من طرف أهل المنطقة.

هكذا اتخذت أيضا بما قورايا طابعها القدسي ولية أنثى من بين عدد كبير من الولاة والصالحين، وهي حسب الروايات ابنة "الشيخ والولي الصالح بن عياد" أحد مشايخ ودعاة للخير وحفظة للقرآن في منطقة بجاية بقرية سيدي عيش، بمنطقة أيضا يطلق عليها سيدي عياد، وأصبح الضريح الذي ترقد فيه بما قورايا اليوم، يتخذ موضع للعبادة في أعلى قمة جبل يشبه هيئة جسد امرأة له رأس بارز، وصدر، وجسد وأطراف وأرجل وأقدام داخل في الماء على طول قمة الجبلⁱⁱ، وهو الحامي طبيعيا وعلميا، والحامي الروحي أيضا بالنسبة لسكان المدينة، إذ «يمنع الجبل على المدينة العواصف الغربية والشمالية والجنوبية، كما تحميها من الهجمات والقرصنة، إلى جانب كونها الحارسة والحامية طبيعيا» (محمد بن عميرة، و لطيفة بشاري، 1436 هـ / 2025م، ص 16)، ففي قمتها اعتكفت الولاية الصالحة بما قورايا إلى غاية موتها ودفنها هناك، ويعتقد رغم كون الجبل يعود إلى العصر الكريتاسي على شكل هيئة امرأة، رغم ذلك فإن المرأة المستلقية هي نفسها قورايا الصالحة أو روح قورايا الحارسة، إحدى البنات السبع للولي الصالح بني عياد، التي وجدت هناك في فترة 429 ميلادي فقط.

² (لعنة: دعوة شر أو سوء يصيب شخص لا يتقيد بتقاليد الصلاح والأولياء وقيمهم، وما حدوده من أعراف لتابعيهم والأجيال.

³ (بما: أمي.

حيث ترفع في هذا المكان الدعوات إلى الله، ويصلى فيها صلاة الاستسقاء، وهو على شكل قصرⁱⁱⁱ، يحكى أنه أعاد الأسبان ترميمه فوق ضريح الأم قورايا، ويشمل على مرافق وغرف لإيواء الغرباء وعابري السبيل والمحتاجين والمسافرين، وموقعا لإقامة اللائم بركوكس أو أفازين باللحم أو القديد⁴ (Barkoukes/ Avazine) والذبح وتقسيم الثروات والأكل على المحتاجين في المواسم الدينية والأعياد، أصبح رويدا رويدا قبلة للمتصوفين من رجال الغيب والعرافين، أو إدرويشن⁵ (Idarwichene) كما يطلق عليهم سكان بجاية، واستقروا داخله وخارجه، فنسجت أساطير يمتزج فيها ما هو ديني بما هو شعبي، وما يرافقه من أدعية وحمل الهموم من قبل الزوار إلى الولية، وشعل الشموع على ضريحها، وطلبا منها المعونة والاستجابة والحصول على البركة، وهذا على وقع الدف، وشطحات⁶ المرضى، حيث يعتقد من خلال القيام بهذا الفعل أن المرض والهم يخرج من جسد المريض أو المبتلي ويبرأ من مرضه ومشاكله الاجتماعية والنفسية وحتى الجنسية، خاصة لما يكون المتسبب فيها هي روح شريرة من الجن.

ثانيا: الجانب الميداني.

1 طقوس زيارة الولية الصالحة ملاحظة بالمشاركة.

تمت من قبلنا ملاحظة بالمشاركة لزيارة الولية الصالحة بما قورايا، حيث كانت البداية عندما تعرفنا على امرأة، وهي زميلة في مؤسسة العمل، فتحننا أمامها موضوع البحث المعلومات الكافية، حول هذه الأسطورة التي استطاعت أن تؤثر تأثيرا عميقا في سكان المنطقة والولاية بأكملها، ويأخذ هذا الاعتقاد بقداستها شكل

⁴ (أكلية شعبية لدى سكان منطقة بجاية، أما القديد فهو اللحم الذي يقوم سكان المنطقة بوضع عليه كمية كبيرة من الملح، ويعرض للشمس والهواء حتى تموت جراثيمه، ويترك خارج الدار أو فوق الشجر حتى لا تصل إليه الحيوانات، حتى يجف، ويتم استهلاكه، في فترة نقص اللحوم، أو حتى لا يفسد وكانت هذه منتشرة سابقا، عندما كانت أغلبية لا تملك ثلاجات لحفظ اللحوم، وإلا فإنه يفسد ويهدد صحة الإنسان.

⁵ (مشايخ نساء أو رجال؛ يزعم أنهم يعرفون الغيب ويتوقعون المستقبل ويتنبئون الخير والشر لمستقبل بجاية وسكانه بمعونة بركة بما قورايا، كما أنهم لديهم موهبة في شفاء أمراض معينة، أو رفع دعوات الناس واستجابتها، حيث يعتقد أن لديهم قبول ومكانة مقدسة من عند الله سبحانه وتعالى.

⁶ (دخول الزائر في حالة يهيجان على إثر وقع الطب والأناشيد، ويقومون بالرقص والسقوط أو عرض قدرات خارقة معينة، بهدف إخراج ما في داخلهم من طاقة سلبية أو جن حتى تهدأ حالته لمدة معينة، ونعني بالشطحة، رقص إلا أنه رقص يكون غالبا بالرقص، أو بلطم الحدود وتخريب الشعر، أو حتى بإخراج النار والحديد في جسم وأفواه المرضى المشاركين في الشطحة.

الدعاء باسمها عند الرغبة في الدعوة لأحدهم، أو توكيل الولاية الصالحة لمن قام لهم بالشر أو سوء، أو حتى تهديد الأبناء بمعاقبة الولاية لهم إن لم يتقيدوا بأراء الأم أو عند خروجهم من تقاليد أسرهم، حيث أخرجتنا الزميلة أن هذا المكان له تأثير كبير لها نفسيتها أيضا، فهي امرأة مريضة منذ سنوات طفولتها، مرضها هذا جعلها تتهرب من الزواج أو حتى من بناء أسرة، إلا أن جميع الأطباء والرفقة لم يستطيعوا تشجيع مرضها، أو التقليل من أعراض الصرع لديها، إلا أن بعد أن تعرفت على هذا المكان، وأصبحت مجبرة كل يوم جمعة من زيارته، حتى تشعر بتحسّن والراحة ونشاط، وإلا فإنها تغضب وتسوء حالتها، ورغبة منا في معرفة هذا التأثير وغيرها من الممارسات التي تحدث هناك، دعتنا السيدة، للذهاب مع أحد نساء جيرانها الكبيرة في السن، التي لا طالما أرادت الذهاب لكن لم يحالفها الحظ لبعد مكان سكنها، وبما أن لدينا سيارة خاصة، فهي فرصة جيدة، حتى تصاحبنا وتتعرف معنا عن كيف سنلاحظ تغير حالة شخص يعتقد بهذا المكان، ويزوره لأول مرة، حتى نتوصل إلى حقيقة الأسطورة وما يربط منها من طقوس وأفعال اجتماعية، وبالبداية كانت كالتالي:

1.1 أمسية الخميس 2024/06/27: توجهنا إلى أحد النساء البالغات من العمر 57 سنة، من بلدية أميزور، ولاية بجاية، لسؤالها عن رغبتنا في الزيارة معها لمقام الولاية الصالحة قوراية، ثم أخبرتنا مباشرة أنها "تريد الذهاب لزيارة المقام بشدة، فلديها أكثر من خمسة وثلاثين سنة، عندما حلمت بأنها سقطت في بئر ضيق وعميق في قمة جبل قوراية، وأن هناك امرأة أسمها لويزة ورجل اسمه السعيد حاول إخراجها إلا أنهم لم يفلحوا، وعندما كانت تسقط في ذلك البئر المظلم على ظهرها ووجهها إلى الأعلى، كانت تصرخ: ساجيني يا بما قورايا إلا أنني سآتي لزيارتك وسأحضر لك (مصباح الشموع Lmassebah)⁷، وتستمر العجوز بحسرة كبيرة قائلة: وعدتها لأكثر من 35 سنة ولم أوفي وعدي لها، وأحس أن هذا هو سبب كل المشاكل التي حدثت لي ولأولادي كل هذه المدة، كما أكدت لنا أنها لم تكن تسمع عن الأم قورايا لأنها كانت تسكن منطقة نائية منعزلة عن المدينة، وأن أول مرة سمعت بها وبقداسيتها كانت عن طريق الحلم، (فاطمة 2024)، حيث تعتقد السيدة أن بسبب المشاكل الاجتماعية التي تتخبط بها، سمعت بها قورايا الولاية الصالحة،

⁷ (المصباح: اسم يطلق على قنينة مصنوعة من الفخار (مصباح زيتي)، يوضع فيها قطعة قماش قابلة للاشتعال (فتيل - ثفثيلت) مع زيت أو غاز، كان الأجداد سابقا يشعلونه ليلا قبل صناعة الشموع وقبل ظهور الكهرباء، وحتى أن استعماله يدوم لفترة طويلة أفضل من الشمع.

وخاطبتها عن طريق الحلم، كي تقول لها أن سبب في شفاء أوجاعك ومشاكلك الأسرية والاجتماعية، ثم أخبرتنا بضرورة، أن نعقد النية⁸ في الزيارة هذه الليلة، لأن بدون النية المسبقة، لا يتحقق مفعول الزيارة عند بما قورايا، ولن تحس بنا، ولن يصل لها شيء من زيارتنا ودعواتنا، ولن تعرف أصلاً بأننا قمنا بزيارتها.

1.2 يوم الجمعة الموافق ل 2024/06/28: في صباح يوم التالي كانت وجهتنا إلى مقام بما قورايا، بعد أن أوقفنا الأم فاطمة لشترى الشموع والماء والأكل الذي تريد أن تصدقه في المقام، لنصل أخيراً إلى قاعدة القمة، حيث لا يمكن للسيارات المشي أكثر، مما أجبرنا النزول والمشى على الأقدام لمسافات طويلة.

حيث لاحظنا على أرصفة الممر والطرق العديد من التجار الذين استغلوا مكانة الجبل وشهرته، لعرض متوجاتهم وتجارهم المختلفة التقليدية وغير التقليدية المختلفة، خاصة تلك المنتجات التي تركز على بيع تذكارات للسياح والزائرين من مختلف ربوع الوطن وخارجه، كما يمكنك دفع مبالغ خيالية فقط للحصول على أكل جاهز، أو قرورات المياه، وفي وسط الساحة تجمع للعديد من الناس على المشايخ الذين كانوا يضربون الدف ويغنون الأغاني القبائلية والعربية القديمة، التي جعلت كل الحاضرين في حالة هياجنا للرقص بالأكثاف والرأس، وهنا دخلت زميلتنا المشاركة في حالة دوخة تستأذنا للرقص معهم، وإلا فإنها تبقى مريضة لأكثر من أسبوع كامل، حتى يتجدد موعد الزيارة القادمة لهذه القعدة الصوفية، أو "الحضرة" Elhadhera

⁹ و"ثايطافث"

¹⁰ Thateyafethe كما يسميها سكان بجاية.

أما المشايخ فكانوا كلهم من الرجال الذين يتقمصون شكل ودور وصوت المرأة، تمثيلاً للأم قورايا، لتمد بعدها الأم فاطمة مثل باقي الزائرين يدها لإعطاء "وعدة الزيارة" Elwa3edha وهو مبلغ من المال يدخل كطقس من طقوس زيارة الضريح، الذي يحسكه الشيخ خفية بدون النظر إلى قيمته ويضعه بسرعة في المكان

⁸ (النية: أن تنوي الزيارة مسبقاً، مثل النية التي تسبق الرغبة في الصوم، أو أن تنوي صلاة النافلة أو صلاة العصر.

⁹ (عملية استحضار شخص مريض بالجن أو أرواح شريرة، يقوم بها مشايخ وعرفان مختصين في إخراج هذه الروح واستحضارها من أجل التكلم معها، وذلك على إثر وقع الدف والغناء له والمديح حتى يتمكن من التأثر والكلام، من أجل معرفة سبب دخوله وشروط خروجه من هذا الشخص، حتى يتوصلوا إلى هدنة واتفاق بمقابل معين بين عالم البشر والشـر.

¹⁰ (إخراج ولائم أو ذبيحة تقام مع حضور جمهور غفير من الناس، ينوي الذي يقوم بها الصدقة بالأكل والمال واللحم من أجل شفاؤه من مس أو مرض، أو من مشاكل اجتماعية وأسرية معينة.

المحدد لوضع الأموال، بعدها يدعوا الشيخ لها بأدعية الخير الكثيرة، مدعيا من الله أن يعطيها الصحة والهناء والاستقرار، وإزاحة المشاكل الأسرية والاجتماعية عنها.

1.3 بداية الإقلاع إلى قمة الجبل والضريح. بعد بداية صعودنا التقينا بالعديد من الزوار من الرجال وخاصة النساء من مختلف الأعمار، وبدأنا بسؤال جميع المارين عن سبب زيارتهم لمقام الولية الصالحة بما قواراية، فكانت الإجابات كالتالي:

- أغلبيتهم عمال؛ نساء ورجال من الولايات الأخرى: أجابونا بأنهم لأجل زيارة الجبل، والقلعة التاريخية، وليس لأجل الأسطورة، والاعتقاد ببركتها.

- شباب ذكور لديهم موهبة في استكشاف الأماكن التراثية مثل القلعة التاريخية قورايا التي تركها الإسبان، والعالية مشبا على الأقدام من أجل ممارسة الرياضة، وسمعوا عن قصة الضريح بأنه يعتقد ببركته من قبل سكان المنطقة، إلا أنهم غير منجذبين إليه وإلى بركته.

- أما إجابات العجائز الكبار والنساء والشابات من سكان الولاية، فكان الهدف من الزيارة، لأجل إخراج الصدقات، وإطعام المسافرين من الولايات الأخرى والفقراء، حتى تستجب دعواتهم من قبل الله فوق الضريح، كذا رزق الشابات بفارس أحلامهن، عن طريق إخراج الصدقة والنية الصادقة والدعوة إلى الله أمام الضريح. 1.4 الوصول: وصلنا في نهاية المطاف إلى أعلى قمة الجبل، لتلوح لنا منظر قلعة إسبانية تاريخية مبهرة وساحرة، بداية القلعة درج طويل وواسع إلى غاية باب القلعة، مبنية بالأحجار التقليدية البنية اللون والمتماسكة جدا،^{iv} بعد الدخول في باب القلعة، تلاحظ مباشرة لقصر تقليدي، يحكي قصة الاستعمار الوندالي والإسباني والفرنسي الذي تعرضت له المدينة والجزائر بصفة عامة، وتقابلك جدران القصر الأربع التي تحتوي كلها على نوافذ صغيرة، تطل على البحر و الولاية بأكملها.

1.5 الطقوس الممارسة:

السلام: سلمت العجوز فاطمة على بما قواراية النائمة بدون ضريح، أو قبة أو قبر، قائلة لها من باب القلعة مباشرة: (السلام عليك، لقد أتيتك يا بما قواراية الصالحة، وسأحني عن غياي عنك لطول هذه المدة (فاطمة Slam rabi flam a Yemma gouraya, Athan ossighad ghoram assa. (2024 salfarh damkran, akan akmidzouragh, whssigh tawlagh flam iylhan dsmah, tkablat flagh in chae allah. ، الأغرب في الأمر أن الأم فاطمة التي تبلغ في عمرها 57 سنة،

بدأت بالدعاء والتضرع لله منذ إحساسها بأنها في أحضان الولاية الصالحة لقوراية: كأن الله لا يسمع منها الدعاء والشكوى إلا في مقربة من عباده الصالحين الموتى.

الطواف واشعال الشموع: كانت الأم فاطمة تطوف¹¹ حول القلعة وتخرج من باب لأخر، وتشعل الشموع¹² في بعض نوافذ القلعة سعيدة، وتدعي الله كلما وضعت الشمعة، أما الشمعة فلا تقدمها لله هدية، بل لأم قوراية قربان وكرامات: (تدعي الله بالصحة Arabi tfktaghad thazmarth yalhan ، وهناء عائلتها sahbibar razkaghad arabi a3ziz lahna taksat flagh ighblan وتوفيق ابنها fohkchichiw tk3adhetas tbi3as drayis وإنجاب الأولاد لبنتها المتزوجة منذ عامين بدون أولاد trazkat sarah sadarya كذا شفاء وهداية ابنها الأكبر المريض tahdhotad akchichow amkran wchy3assad ljabran yabab arahman).

الوعدة: بعدها دخلنا إلى غرفة الحضرة والصدقات، لتضع ما أتت به من وعدة¹³ للشيخ الموجود هناك، لأجل الحصول على البركة¹⁴: (سلمت¹⁵ مجددا في باب الغرفة على بما قورايا Slam Rabbi flam a Yemma Gouraya, Slam rabbi flawan marra)، وفي الغرفة الكثير من الأغصية والزراي التقليدية، التي تأوي كل المسافرين أو الزوار إن حل عليهم الليل بدون مؤوى في الولاية، بعدها درج يصعد داخل الغرفة إلى غرفة صغيرة ثانية فيه شكل كومة كبيرة عليها العديد من الشموع التي ذابت فوقه لأكثر من

¹¹ (يشبه طواف الحجاج في الكعبة، نحاول من خلالها اشعار الأم بوجودها، ولمس جميع جدرانها حتى نحس بأنها لامست روح الأم الصالحة قورايا.

¹² (الشرط الثالث لقبول الزيارة وقبول الأم قورايا للزائر، بعد شرط النية والطواف بين الضريح.

¹³ (وهي إخراج مبلغ مالي معين، للشيخ، لأنه من يقوم بخدمة الأم قورايا،

¹⁴ (أن يحس الزائر أن الشيخ تقبل الشخص الزائر، وستحقق له دعوة الشيخ له وبركاته، لأنه أيضا قريب من الله، ومن يدعوا عليه بالخير أو الشر يصيبه، لأن الرجل يتقبل منه.

¹⁵ (السلام على الأم قورايا من آداب دخول ضريحها، وهو ما يعني أن الزائرين يعتقدون أن أمهم تعرف حضورهم وتعرف منهم ومشاكلهم، حتى تشفع لهم.

خمس قرون، يعتقد أنه الضريح رغم أن لا وجود لشكل أو بقايا قبر أو ضريح، حيث يوضع فوقه شموع، وأيضاً يتم فوقه وضع وعدة خاصة¹⁶ بالأم قورايا^v.

الحناء: تصعد الأم العجوز فاطمة بدورها، لتضع الوعدة الشموع ليما قورايا قائلة لها: (وعدتك وأتيت يا بما قورايا، ولكن لم أجد مصباح الشموع، وسأتي به المرة المقبلة Wa3dakhekam a Yemma Gouraya adassagh ghoram, wassa athan ikthab akmazragh, wa3dakhekam (daghan salmasbah mi ofighara, mi adaklagh amtidawigh aywak ithakthab (فاطمة 2024) والغريب في الأمر أن الشموع التي كانت تشعلها، كانت في كل مرة تشتعل وتنطفئ، فقال لها الشيخ: (أهل الدار غاضبين عليك يا سيدة، فقط حاولي مرارا حتى يتقبل منك الزيارة، ويذهب غضب الولية الصالحة عليك lal wekham fek3an felawen, 3awedh alama thetwakeblat (متصوف 2024)، وهكذا بقت فاطمة تحاول مرارا وتكرارا حتى استطاعت أن تشتعل كل شموعها، بعد أن طلبت السماح والغفران كثيرا من الولية الصالحة، لعدم زيارتها لها في الوقت المناسب، حيث تمججت لها الأم فاطمة، بظروف اجتماعية واقتصادية عرقلتها عن المجيء، رغم أنها لها نية الزيارة تدوم لأكثر من خمس وثلاثين سنة، وبعد أن تقبل منها مباشرة، وبدأت بدعوة الله مجددا نفس الأدعية الأولى، لتتوافد باقي النساء والبناء التي يدعون بأعلى صوتهن بصلاح الزوج والأولاد والرزق والشفاء والزواج بفارس أحلامهن، ثم يخرجن بعض وضع صدقة من قطع أو أوراق نقدية بالقرب من الشموع، ويضعون الحنة¹⁷ من قبل الشيخ على أيديهن ولأولادهن، تحسبا لبعد الشر وجذب بركة الولية الصالحة عن طريق الحناء، ورمز لصبغ وثبات وتحقيق الدعاء.

تمعنا جيدا في الضريح الغير الموجود، وفي تلك الغرفة المستخدمة والمستغلة لإطعام المارة والفقراء، ومبيت الغرباء والمسافرين، كما لاحظنا أيضا آيات قرآنية غير محرفة مكتوبة في قطعة من الخشب ومعلقة أمام الضريح

¹⁶ (وعدة أي قطعة مال موجهة إلى الأم قورايا، حيث يعتقد أن الأم قورايا تقدمهم للمرضى أو المحتاجين، ويعتقد أن لا أحد له الحق في الأخذ من هذا المال، وإلا سيصاب بمرض، بما في ذلك الشيخ نفسه، إلا أن الغريب في الأمر أن عندما يجددون الزيارة ويجدون أن المال ناقص أو تغير، فهم لا يشكون بتاتا في استخدام القضية لأمر شخصية، ويل مقتنعين أن أمنا قورايا هي من أخذتهم لاستغلالهم في الخير وصلاح البلاد.

¹⁷ (بما أن الولية صالحة، فلهذا تحب الحناء، ويضعها الشيخ في أيدي جميع الزوار، حتى يقتنعهم أن زيارتهم وصلت وسجلت لدى الأم، وأن همومهم ذهبت، وأن أفراحهم قريبة، وهي ترمز للتقبل والثبات.

المملوء بالشموع: تبدأ باسم الله الرحمان الرحيم، المعوذتين ثم أية الكرسي. كما قالت لنا العجوز الجوهر من بجاية بعد أن شككت في استغرابنا من جميع تلك الطقوس والألوان، أن: (الاقتراب من الولية يجدد عزيمتهم في التضرع إلى الله وإخراج الصدقات وعمل الصالح في الحياة) (عجوزة في 87 سنة 2024). كما استمرت قائلة: (الأهم في هذا أن الأدعية إلى الضريح الصالح من قبل كل المعتقدين لا يكون باسم: بما قورايا استجيب.. بل يا الله استجيب لنا) (عجوزة في 87 سنة 2024).

كما قد لاحظنا أن شكل وملابس الزائرين غير متشابه، أما الشيخ فأخبرنا أن لا ضرورة للباس خاص، فالمظهر لا يجدي، أما الشرط الضروري لتحقيق الطقوس، هو أن تكون هناك نية صادقة من القلب في الزيارة لأن بدون نية لا يتحقق شيء من الدعاء (..)، وقال أن دعوة الولية الصالحة قوراية مستجابة، فهي امرأة طاهرة وقريبة من الله (متصوف 2024).

1.6 إحساس المشاركة بالراحة: خرجنا بعدها من الغرفة لتتوجه بنزهة قصيرة في القلعة، لتصبح العجوز فاطمة بدهشة من فوق أعلى سطح القلعة: (أنه نفس البئر الضيق والمظلم الذي رأيته في الحلم منذ 35 عام، إنه هذا شكله وعمقه 35 Arabbi a3ziz wallah ardalbir-ni izrigh gthargith safi sna, aka iymog, dayi izrigh ghligh fo3rou, aka issadhelam, waka idayik, wgamkanayi yakan ithorgagh) (فاطمة 2024)، لتجيبها إحدى الصدقات التي شاركت معي في إعداد الملاحظة بالمشاركة قائلة: (إنه بئر قديم يعود لعهد فرنسا، نعم إنه عميق جدا، كان في السابق ممر طويل من قمة الجبل إلى غاية مدينة بجاية "باب الفوق"، كان يستخدم كمدخل أثناء الثورة، بعدها حولته فرنسا إلى رمي المجاهدين وإعدامهم فيه، الآن هو مملوء بمياه المطر والتراب Albir ayi tafran zikani imjahdan mi yella isti3mar aroumi, issoufogh gthekantoucheth-ayi, alami dabgayeth iwkekssar "bab lfoka" assemi idakcham franssa tafran dina slleh Imjohadhe, alami isntefak, ikar isti3mar yatnough dina imjahdhan, itagirithin fo3rou ghazdhakhal, alami itchour, toura dayan bal3ant yarna ytchour daman lahwa diblatan, ikal oyssofoghara dakssar.)

ثم نظرنا السيدة العجوز تقول بكل ثقة: (أحس أن اليوم يعد رؤيتي لهذا البئر الذي حلمت به منذ 35 سنة، أن همومي إن شاء الله ستذهب وتزول كلها، وبعد 35 سنة من المشاكل والخوف والمرض ستستقيم حياتي وحياة أولادي ويشفى ابني، وأتمنى أن اسم رجل السعيد هو السعد والخير والاستقامة في درب عائلي،

أما اسم المرأة الليفة هي دليل على الريح والوزير¹⁸ والنجاح والتوفيق لأولادي ولي Shossagh assa mizrigh lbir-ayi yemma gouraya iwargagh imi i3dan 35 sna, inchallah dighblan-annagh iyfokan, dlmachakil wkham iykssan, dlkhir wdalfarh adiklan adikecham akham-nagh, dlahlak adifakan aghornagh, dimati iyssaftan dayan, todharthiw wtotharth lwacholiw adika3dhan, dibardhan l3ali wdarbah ighditedoune, wmanagh isam nssa3id inchaallah dassa3d l3ali dalkhir iditedoune. Wissam nlwiza darbaw wdidheriman itharwaw dokhamiw, (فاطمة) (wdhami adhijin slahlakis wadikal ghoubrihdh yalhane, Inchaallah 2024). لنجيب لها متأثرين بحالتها النفسية المنفعلة إلى الخير تلقائياً ب، إن شاء الله من عمق القلب والنية الصادقة In chae Allah arabi a3ziz.

1.7 بما يامنة: بعدها توجهنا بنزهة أخرى إلى خلف القلعة الأثرية، لنجد مجدداً بقايا قبر وضريح مكتوب بالقبائلية بحروف فرنسية: 1856 Yemma yamna، أي الأم أو أمي يامنة^{vi}. أما النقاط فهي حروف ممحاة غير مفهومة، إلا أننا اعتقدنا أن ربما الاسم الحقيقي للقوراية هو يمنة، من الممكن أن يكون هذا هو القبر الحقيقي الذي تداولت عليه الأسطورة، وكنت بقوراية لجمالها وتشبهها بالقمر، إلا أن الأساطير تقول أيضاً أن يامنة هي أخت ليما قورايا وليست قورايا، وقد اعتكفت مع أختها على قمة ذلك الجبل حتى أن ماتت ووضع لها ضريح هناك.

2 مسائل أخرى تهم أفراد يقبلون للولية من أجل إيجاد حلول لها.

2.1 المشاكل الاجتماعية وزيارة الولية الصالحة قورايا.

استقبل الشيخ جماعة زائرين أتوه مع عائلاتهم وهم مجموعة وإخوة وزوجاتهم لديهم مشاكل في الإرث وعائلية بينهم، وبعد أن أتفق الإخوة سابقاً أن عند الولية الصالحة يتم توضيح نقاط الاختلاف بينهم، ونقاط مشاكلهم، استطاع الشيخ أن يجمع بينهم بعد نقاش حاد وطويل للعائلتين، أن هذا قال .. وهذا فعل.. وهذا أكل حق ذاك، فاستطاع الشيخ أن يقنعهم أن سبب مشاكلهم هذه كلها هي في يدهم عن الله وعن الأولياء الصالحين، وترغب اليوم الأم قورايا في لم شملهم، وترك أخطائهم والتعهد بعدم تعد طرف على آخر، لأن إن حصل ذلك سيصيبهم شقاق وصراع لا ينتهي، وأخبرهم أن هذا ليس من رغبتهم إلا أن سببه دعوة

¹⁸ (يطلق هذا المصطلح على الكثر والذهب الخالص.

شر للأجداد والصالحين، جراء خروجهم عن أعراف الأجداد، وأولها أن أوليائهم كانوا يتصدقون ويحترمون الولاة، ويتقيدون بالأعراف الاجتماعية، ووعدوا الشيخ بأنهم سيحافظون على شملهم ويساهمون في إبعاد جميع الشرور ودعائوي الشر، وسيحاولون دائما زيارة هذا المكان حتى يتثبتون في وعدهم على الحفاظ على روابطهم وعدم ترك وعدهم للأم قورايا، ثم قاموا بتجديد إخوانهم ووعدهم لبعضهم عن طريق تقديم خروف صغير ليقوم الشيخ بذبحه أو التصدق له للناس، من أجل أن يرفع الله مشاكلهم اليومية، وهكذا استطاع الإخوة أن يتعانقوا، واستطاعت النساء أن يبكين من حرقه سنين ضيعناها مع بعضهن وعشنا المشاكل بدلا من اللحظات السعيدة، وغادرت العائلة ونحن متأكدين بأن الروابط بينهما تجددت، وأن هذا الوعد والرغبة التي أطلقوها في هذا المكان المتجدد، ستجعل علاقاتهم الأسرية تعود لطبيعتها ويعيشون استقرار لعدة سنوات أخرى.

2.2 الأم قورايا والحفاظ على قيم وأعراف سكان المنطقة.

أما امرأة أخرى سألناها عن تأثير الولية الصالحة فيها، فقد أجابتنا أنها مريضة، وعليها زيارة الضريح كل يوم جمعة، كي تجدد نفسيتها ونشاطها وتعيد عزيمتها، وقالت أن الأم قورايا ليست أسطورة خرافيا، بل أنها دافعت كثيرا من أجل قداسة المكان: حيث حكى لنا أن في سنوات الثمانينات والتسعينات كان الرجال يأتون إلى هذا المكان من أجل شرب الخمر، فكانت تجري ورائهم بالنار وتشتعل النار في كل من يفتح قارورة خمر، حتى خافا السكرين من تدنيس هذا المكان، وقالت أنه المكان الوحيد في بجاية الذي لا يمكن لأحد أن يشرب فيه نار أو يمارس فيه دعارة رغم مساعدة الطبيعة لذلك، إلا أن قورايا تحافظ على سمعتها وحرمتها بنفسها، وقد سألناها إن كان الرجال أيضا يؤمنون بها كثيرا لدرجة أنهم لا يفعلون بهذه الأمور هنا، فأخبرتنا بلا، لأن السكرين لا يخافون مكان ولا يؤمنون بشيء، وبل منهم من يذهب حتى إلى المقابر ليشرب الخمر ليلا (مقبرة سيدي والي.. أو يمارسون فيها أمور معينة) إلا أن قورايا تمنع ذلك، ترمي كل من يحاول تدنيسها بالنار وتحرقه وتخرجه من كافة تراجها، وهكذا أيضا عندما يحاول شخص معين أن يحلف بها باطلا، أو لا يتقيد بأعرافنا، فإن بما قورايا تبعث له دعوة السوء أو لعنة، وكم من واحد حاول أن يظهر عدم قدراتها على التأثير في حياة الناس، فيتحدثها ويصاب بالجنون أو بمس أو يعوق. (عجوزة في 87 سنة 2024)

3 القصص والروايات التي يحكيها الزائرون حول حقيقة الولاية.

1 تقول الأسطورة الأولى أن ولاية بجاية الجزائرية، كانت وفد لجميع الحضارات التي مرت على الجزائر، وأن بجاية أنجبت 99 والي صالح، من أهل العلم والدين والأدب والحساب، وكثرت فيهم الزوايا التي يعملون فيها لتعليم العلم ونقله إلى الأجيال اللاحقة، كما أن للولاية، امرأة ولية صالحة تدعى بقوراية، والذي يعني بالقبائلية أقوور Agoure أي القمر، وكناية عن جمالها الأخاذ حيث تقول الأسطورة على لسان الشيخ العاكف في قمة الجبل حاليا، أن قوراية اعتكفت في قمة أعلى هذا الجبل لتكون قريبة من الله، هاربة من فساد المدينة، حيث أن الله أعطى لها بركة اليد في تطبيب المرضى، وإخراج الجسد المسكون من الجن بالرقية والقرآن، كذا الدعوة المستجابة. كانت أخت لسبع بنات، كلهن من عائلة دينية، وهي ابنة الولي الصالح بني عياد ببلدية سيدي عيش بجاية، ورثت منهم البركة والتقديس. ويقول الشيخ العاكف اليوم والمتصوف في قمة أعلى جبل قوراية، أن قوراية مدفونة هنا، إلا أن ضريحها مختفي، لكون الأسباب بنو فوقه هذه القلعة التي استخدموها في حراسة الموانئ، كون الجبل يطل على البحر وكل مدينة بجاية من القسم الشمالي للجبل، أما فرنسا قامت في استخدام الضريح في جمع الأسلحة وتخريبه، وبعد ذلك عدلت القلعة وبنّت فوق القبر، لتجعل منهم قلعة لحراسة المجاهدين من أعلى الجبل، لهذا كان الضريح مختفي، وغير موجود اليوم (متصوف 2024).

3.2 الأسطورة الثانية التي يتداولها الشباب الصغار اليوم، أن قوراية خرافة تاريخية، فليس هناك امرأة اسمها قوراية، إلا أن شكل الجبل الذي خلقه الله تعالى على شكل جسد امرأة مستلقي، جعلت الناس الكبار في السابق، يعتقدون أنها امرأة في قمة جبل بجاية تحرس المدينة، أما البعض الآخر يقول نفس القصة، ويزيد عليها بذهاب ابنة الولاية الصالحة بني عياد إلى هناك، وهي امرأة كانت لها يد وموهبة في شفاء المرضى، ورفع الأدعية إلى الله، يحث يتوافد الناس إليها لنيل بركة شفاءها وتطبيبها ودعواتها التي كانت مستجابة، وبعد أن ماتت لا يزال الناس يعتقد أن الجبل المسماة قورايا هو نفسه الأم قورايا، وتسكن فيه روح المرأة الصالحة لحمايتهم والاستجابة لدعائهم.

3.3 أما القصة الثالثة لقوراية، فهو أكبر جبل في الولاية، بعد دخول الإسبان استقروا فيه لحراسة الموانئ من فوق المدينة، باعتبار أن البحر والمدينة كلها تقع تحت أنظار الجبل، لذلك بنو فيها قلعة بمختلف النواذف التي لا تزال موجودة إلى يومنا الحالي، حيث يوضع الجنود على كل نافذة لترصد أي قراصين داخلية، أو أي

غزوات خارجية إلى المنطقة، ويعتبر الجبل حامي المدينة من القرصنة ومن دخول الأجانب، والحامي طبيعيا لأنه يقلل من العواصف والرياح البحرية الشديدة على المدينة.

3.4 أما القصة الرابعة لأسطورة قوراية، من قبل النساء خاصة المعتقدات والزائرات أسبوعيا لذلك الجبل، أن قوراية طفلة شابة وهي أيضا ابنة ولي صالح من سيدي عيش، أراد أبها تزويجها برجل لا تحبه، هي كانت راغبة في شاب أحبته جاء لخطابتها، فلم يقبله أبوها وأجدادها، اسمه تيشي، (وتشي اليوم مدينة تقابل جبل قواريا مباشرة)، وتقلن النساء بكل الثقة أن تلك الشابة غضبت وهربت من العريس الذي لا تريده، فإعتكفت في قمة الجبل مقابلة لمكان سكن حبيبها تيشي، ليخلصها الله من الزواج بهذا الرجل.

3.5 تتداول أيضا في الكثير من المقالات والمراجع العربية، أن قوراية كانت شابة جميلة أتت مع الأسبان لاحتلال بجاية، وبعد أن دخلت الإسلام أثناء عملية تواصلها مع سكان بجاية الأصليين، حيث أنها كانت معلمة، انجذبت إلى السكان، ودارت على أهلها فحاربت الأسبان إلى جانب الجزائريين، لهذا فهي حامية بجاية من العدو، وبعد خروج الأسبان بقيت في الجبل تستمر في عملية تعليم المعارف للأطفال، إلا أن ماتت، أصبح الجميع يزورها تكريما لها ولجهودها.

ثالثا: تحليل النتائج.

تستمد الأساطير والمعتقدات والطقوس من الديانات السماوية، التي أقرت في بداية الخلق أن هناك أمور ومخلوقات غيبية تسيطر وتوجه وتتسلط على قوة الإنسان وأفعاله، مما يجعل الفرد دائما يبحث عن الأساليب ويختار الأمثل الذي يمكنه من وضع هدنة مع العالم الآخر، كذا التخلص من شره، حتى يرتاح نفسيا، ويتغلب عن الخوف والعجز من السير قدما.

مكونات الفعل الاجتماعي الأساسية كلها، مستمدة من أسطورة تروى "شفهيا" أي قول محسوس، ثم ضرورة "الاعتقاد بها" أي الإيمان بها عقليا ووجدانيا، بعدها ممارسة الفعل الذي يعكس المحسوس والاعتقاد الروحي، عن طريق طقوس وأفعال اجتماعية معينة، وإن غاب الفعل، فإن الاعتقاد يكون ناقص، أو الإنسان ليس بمؤمن، فتحريك الفعل نحوى ممارسات معينة، يتوجب عليه الإيمان بقوة أو أسطورة ما.

الحقيقة في هذه الأسطورة، هو وجود امرأة صالحة يذكرها الجميع، ويذكر نسبها الجميع، إلا أن انتقال الأحداث من فترة لأخرى، لا يكون بنفس الحقيقة الأولى التي تعكس مصدرها الحقيقي، مما يعني أن الناس يحرفون الكثير من الروايات الحقيقية المتعلقة بالأساطير، والذي يؤدي في آخر المطاف إلى إخفاء حقيقتها

كاملة، ثم إلى نسيانها من قبل الأجيال، هذا ما أكدته فرويد في قوله أن: «المعاني الأصلية في الأسطورة تكمن خلف المعاني الظاهرة الخادعة» (شتراوس، 1986، ص 16).

ليس هناك اسم قورايا بالقبائلية gouraia لأي امرأة، مما جعلنا نتأكد أن قورايا إما يكون هو اسم الجبل الصغير بالأسبانية، أو صفة تطلق بالأمازيغية للقمر agour معناه أن هذا الشخص فائق الجمال، وعظيم الأثر في حياتهم.

يؤكد علماء النفس أن الخوف والحب، هم من يدفع الإنسان إلى الميل نحو الأشياء التي يرتاح بها لتجديد حبه، وراحته واطمئنانه النفسي في هذه الحياة، التي قد يشوبها اللهو والتناسي والابتعاد عن المبادئ الدينية والغيبية الكبرى، من ثم فإن التراث الديني الشعبي، شأنه شأن التنشئة الاجتماعية، ووسائل الضبط الاجتماعي، والتضامن الشعبي، الذي يجدد العزيمة، ويبعد القلق عن النفس، ويحافظ على القيم والأعراف، وإلا كان مسار الأفراد الضياع والاختناق في الفراغ العلمي، الذي يشبع العقل ولا يشبع الروح واليقين، بالتالي فالروح دائما تحتاج إلى العقيدة إلى الإيمان بشيء حتى تملئها السكينة والطمأنينة، وإما تكون هذه العقيدة في الله وما أوتي به من أدلة وحجج، أما في غيبيات أخرى لها تأثير معين على حياتهم النفسية والاجتماعية.

طقوس زيارة الولية الصالحة، أستمدها بعضها من الديانة الإسلامية بما لها من طقوس ومعتقدات، الإيمان والاعتقاد بالغيب لما له من قدرة في التأثير وتغيير حياة البشر، النية مثل نية الصلاة والصوم، الطواف كطواف المسلمين في الكعبة ولمس الحجر من أجل البركة، استجابة الدعوة، إخراج الصدقات، مزوجة ببعض الخرافات الشعبية التي قد تكون صحيحة أو مغالطة، إلا أن لها دور في تجديد روح الإنسان وأماله في مواصلة العطاء والعمل، أيضا تجديد عزيمته وراحته النفسية، إلا أن عملية الخلط الطقوسي عند الزوار يدل على أن سكان المنطقة من الشيوخ والرجال والنساء ما زالو يعتقدون ويؤمنون "بعقل ما قبل المنطق" حسب ليفي بريل.

أغلبية جيل الشباب خاصة الذكور منهم، لا يؤمنون بهذه الطقوس والأساطير التي ما زال الكبار من النساء والرجال يؤمنون بها، وهو ما يدل على اختلاف القيم بين الجيلين تبعا لمتغيري الجنس والسن وموازة مع التغير الاجتماعي وارتفاع الوعي والمستوى الثقافي.

تدخلنا في بعض نقاط الدراسة، التي لا تعد إلا موقف شخصي، ويظهر هذا في تفسيرنا للأسطورة على أساس أن: مصطلح قورايا باللغة القبائلية يعني القمر Aghour، وهذا رمز يقال للشخص الجميل، وليس

للجبل الصغير، كون جبل قوراية منطقيا أعلى قمة في ولاية بجاية، إلى جانب وجود ضريح حقيقي هناك، باسم يما يامنة التي يحكى أنها، أخت لقوراية، وإن كانت هي نفسها قورايا، أو أخت لقورايا، فالأهم أن الرواية لا يخفي حقيقة امرأة ولية صالحة كانت متصوفة هناك.

لهذه الولية دور اجتماعي ونفسي هام، فأسطورة قوراية قبل أن تكون خرافة أو حقيقة، فهي على كل حال تحكي عطاء المرأة المبهر، تحكي التربية والقيادة واستجابة دعوة الأم، تحكي الولاء وحماية الولاية، كما تحكي التقرب ودعوة الله والتقرب منه، ووجود أمل في التغير والشفاء والاستجابة من قوة غيبية، كما تحكي ضرورة تقيد الأجيال بدعوة الأم وبقيم الأجداد وضرورة مراعاة ضوابطها وتحقيق رضاها وعدم إغضاها، لأن رضاها من رضى الله عليهم.

عايشنا حالتين للزميلة أيضا الجوهرة العجوز، التي عادت إلى نشاطهما وحيويتهما بعد أن قامت بزيارة الولية والمشاركة في الطقوس، كما شاركنا أمام ذلك اعتقاد وإيمان فاطمة أن مشاكلها انتهت لأنها أكثر من خمس وثلاثين سنة، حضرت إليها الأم قورايا وأخبرتها أنها سبب في ذهاب همها، والمطلوب منها فقط ضرورة الاعتقاد، والنية المخلصة، ورفع الدعوة إلى الله، والتأكد من الاستجابة، ثم إخراج صدقة، وبعد كل تلك الطقوس، وجدنا تأثير نفسي للولية على حالة فاطمة، وسعدتها، وكانت متأكدة ومتفائلة في الشفاء وتغير حياتها وحياة أولادها للأحسن، مما جعلها في حالة نفسية مستقرة ومرتاحة، تقابل مشاكلها وحياتها بالكثير من التفاؤل أكثر من السابق، وبنيت فيها أمل قد فقدته لسنوات طويلة، إلى جانب أنها أصبحت ترى مشاكلها بأقل قلق وأقل خوف، لأن الأم قورايا أخبرتها أن دعواتها مستجابة وأن مشاكلها انتهت، مما يعني أن الاعتقاد بمثل هذه الأشياء لديهم يصبح كتجديد للعزيمة وتغذية لروح أنهكتها مشاغل ومشاكل الحياة الاجتماعية المختلفة والمحبطة.

كما شاركنا الأسرة التي استطاعوا تجديد إخائهم وعلاقاتهم ووعدوا أنفسهم بالعودة إلى السعادة وعيش اللحظات الجيدة بينهم، والبعد عن الشقاق، والتمسك بقيم أجدادهم وإلا أصبح غضب الولية ودعوة شرها عليهم.

خاتمة:

يستند سكان المنطقة في ممارساتهم الاجتماعية والشعبية المختلفة إلى الدين من جهة والخرافة من جهة ثانية، وتعد الديانة الإسلامية محدد ومصدر أساسي لسلوكياتهم وأفعالهم الاجتماعية ومختلف طقوسهم، وبما أن الأولياء الصالحين، كانوا سابقا ورثة الأنبياء والرسل في نشر الدعوة وتحقيق صالح الأمة، عرفت المنطقة كغيرها من المناطق الجزائرية بالكثيرين من الصلاح والناس المقربين من الله، ممن أفنوا حياتهم في خدمة الناس وفق ما تقر عليه الشريعة السموية، وكانوا مصدرا للنصيحة، ومصدرا للتوجيه، وقبله حل مشاكل مختلف الناس، وكانت أهم دعواتهم الإيمان بالله وضرورة النية ورفع الدعوات إليه، وبما أن مرحلة الأولياء الصالحين قد ولت، وضع لهم أضرحة وروايات لهدف تذكير الأجيال والناس بكل جهودهم، إلا أن الأمر الغريب أن إقبال الأجيال إليهم كان بنفس الهدف قبل موتهم، وهو الإيمان بهم، ورفع مشاغلهم إليهم، حتى تصل إلى الله، لأنهم أوليائه المطيعين والذين كانوا يحضون بالقبول واستجابة الدعوة، وهكذا أصبح العديد من الناس رغم التطور الاجتماعي والعلمي والوعي السائد، لا يحسون بالراحة وتحديد أمالهم في الكون والحياة، إلا عند التقرب إليهم، والبوح لهم عن مشاكلهم الاجتماعية والنفسية والجنسية...، وطلب البركة واستجابة الدعوة منهم، معتقدين أن الإنسان مهم كانت مكانته عند الله عز وجل يمكنه أن يشفع لغيره من الله، ويطلب من الله عز وجل التخفيف من أثامهم وتقليل مشاكلهم وحلها.

الإيمان بهذا الشكل له دور كبير في نفسية وحياة الزائرين لكونهم بمجرد الزيارة يقتنعون بقبول الدعوة وتحسن أحوالهم، مما يجعلهم يعيشون في عدم قلق وراحة لفترة معينة، وذلك ناجم نفسيا من إقتناع الأفراد المسبق إن تمت الزيارة وممارسة الطقوس كما سردت فإن بالتأكيد ستتحقق النتيجة، وهذا الإعتقاد يشعرهم بالأمن ويقلل من خوفهم اتجاه المستقبل والمجهول، إلا أن الجدير بالذكر أن الأسطورة وإن كانت تحمل أمور معقدة أحيانا وخاطئة من ناحية الدين من الناحية الأخرى، إلا أنها استطاعت أن ترسم لنا دور العقيدة في الدين في إشباع الجانب الروحي والنفسي والاجتماعي للأفراد، وتعد موجه هام لأفعالهم وحالتهم المزاجية والنفسية، وتحسن حتى من علاقاتهم الاجتماعية، وتلعب دور كبير في الحفاظ على قيم والأعراف الحيدة في المجتمع خاصة تلك المتعلقة ب: الصداقة، الأخوة، حفاظ الروابط الاجتماعية، تحديد الصلاة والزيارة، الابتعاد عن الفسق والأثام التي نهانا عنها أجدادنا.

وأخيراً؛ المكان بما قورايّا قد تم طمسه وتشويهه من طرف الاستعمار الاسباني والفرنسي ببناء قلعة وأماكن للحراسة فوق الضريح، والسؤال الذي يمكن الاختتام به لفتح أفاق أخرى في تحليل ودراسة هذه الأسطورة من زوايا أخرى: لماذا لم تمنع قورايّا الاستعمار من بناء هذه القلاع على قبرها إذا كانت هي من تملك هذه القوة الروحية والشفاعة للناس؟

قائمة المراجع:

كتب ومقالات:

1. بن عمر عبد الله، 2024، الأنثروبولوجية والأسطورة، مجلة أنثروبولوجية الأديان، المجلد 20، العدد، 02، 24-42.
2. جيل فريول، 2011، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ط1، ترجمة أبتسام محمد الأسعد، دار الهلال، بيروت، لبنان.
3. حاتم العبيدي، 2019، المعتقدات الشعبية والغيبية بين الحقيقة والخيال، ط2، بدون دار النشر، القاهرة.
4. حسن الباش السهلي، و محمد محمد توفيق، ب س، المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ط1، دار الجليل.
5. كلود ليفي شتراوس، 1986، الأسطورة والمعنى، ط1، ترجمة شاكير عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
6. ليفي بريل، العقلية البدائية، بدون سنة، ط1، ترجمة محمد القصاص، دار الشؤون الثقافية العامة، مصر.
7. محمد بن عميرة، ولطيفة بشاري، 2015، تاريخ بجاية في ظل مختلف الأنظمة السياسية من عهد القرطاجين إلى عهد الأتراك العثمانيين، ط 1، دار الفاروق للنشر والتوزيع، الجزائر.

مقابلات:

1. الجوهر، 87 سنة، مقابلة من طرف ليدية عجيسة. حول الإعتقاد بقورايّا ببلدية بجاية ولاية بجاية، (28 06, 2024).
2. شيخ متصوف، أجريت معه مقابلة من طرف عجيسة ليدية. حول الإعتقاد بقورايّا، متصوف في ضريح الجبل قورايّة ببلدية بجاية ولاية بجاية، (28 06, 2024).
3. فاطمة، أجريت معها المقابلة ليدية عجيسة وشاركتنا في الملاحظة بالمشاركة. حول الإعتقاد بالضريح بما قورايّة بأميزور ولاية بجاية، (27-28 06, 2024).

ⁱ (ممر صعب يظهر عناء ومشقة الزائرين عند رغبتهم في زيارة الولية الصالحة، وهي أعلى قمة بمدينة بجاية.



ⁱⁱ (جبل يما الذي يعتقد سكان المنطقة أنه يتخذ شكل أمهم قورايا وهي نائمة وتحرس عليهم.



ⁱⁱⁱ (قلعة أو قصر يما قورايا، وداخله يوجد الضريح، رغم أن ليس هناك أي آثار أو بقايا للضريح.



^{iv} (شكل أسوار القلعة العتيقة، مع شكل البئر فوق ارضية القلعة، حيث كانت فرنسا ترمي بالمجاهدين داخله.



^v (ضريح الأم قورايا الذي توضح فوقه الوعدة، وتشعل عليه الشموع.



^{vi} (ضريح الأم يامنة.

